دراسات الأدب المعاصر
السنة الرابعة، العدد١٤، صيف ١٣٩١ش
ص ١١٣-١٣٠

الطبيعة الحية فى أشعار إقبال اللاهورى وأبى القاسم الشابى

ليلا قاسمى حاجى‌آبادى* - زهرا مهاجر نوعى**

الملخص

إذا أمعنا النظر فى الشاعرين الكبيرين "أبى القاسم الشابى" و"إقبال اللاهورى" وجدناهما من أكبر الشعراء المصلحين الشرقيين الذين اهتموا بالنفس وشجعوا مواطنيهم على معرفة النفس، لأنها مقدمة لمعرفة الله تعالى وبالتالى التحرر من مخالب الاستعمار والأزمات الأخرى لأن الإنسان حينما يعرف نفسه ويعرف ربّه رجاء للتقرب إلى الله وعالم المثال والاتحاد به لايخاف من كل صعوبة فى طريقه. يهدف هذا البحث إلى دراسة الظواهر المختلفة للحياة فى شعر الشابى واللاهورى كما يهدف إلى الكشف عن حياتهما وثقافتهما ثم البحث عن أهم الموضوعات التى تطرقا إليها. فهما استخدما الرمز فى بيانهما للحياة والطبيعة وهو أبرز ظاهرة يمثل أشعار الشابى واللاهورى فى الحياة.

الكلمات الدليلية: أبوالقاسم الشابى، إقبال اللاهورى، الشعر، الحياة، الطبيعة.

* جامعة آزاد الإسلامية فى گرمسار، إيران. (أستاذة مساعدة)
** جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات، طهران، إيران. (طالبة مرحلة الدكتوراه)
Z_Mohajer_N@gmail.com

تاريخ الوصول ١٣٩٠/٨/١١ تاريخ القبول ١٣٩١/٣/١٢

المقدمة

عاش أبوالقاسم الشابی وإقبال اللاهوری فی زمن کان الاستعمار قد ساد علی بلادهما. والاستعمار من أجل السیطرة علی الشعوب کان ینشر فکرة الجبر والتقدیر المحتوم والخضوع أمام الأمر الواقع واستغل العقلیة الساذجة للشعب، فأدّی هذا الأمر إلی تحریک عاطفة هذین الشاعرین فاتخذا موضع الحیاة فی الطبیعة المیتة. وهذا الموضع هو موضع واقع بما أنهما یدرکانه.

وبناء علی هذا دعا الشابی واللاهوری مواطنیهما أن یهتموا بجوهر النفس ویجعلوا الطبیعة المیتة أسوة لحیاتهم؛ فاستخدما لسان الرمز لبیان آرائهم عن الاستعمار من جهة ولیحثوا مواطنیهما بالسعی والجهد لإدراک المفاهیم المعنیة ولیحرّکا شعور الناس بمثل هذه الأمور، وعاطفتهما هی عاطفة صادقة تعبّر عن شعورهما العمیق أمام رؤیة هذه الوقائع.

فهذان الشاعران قد اتجّها نحو الرومنسیة ومن خلالها یشیران إلی عالم مثالی لیس إلا التقرب إلی معرفة هذا العالم وهو القرب الإلهی.

فلا فرق بین أن یکونا فی عالم الطبیعة من الغابة والصحراء والجبال أو المجتمع الإنسانی فیدعوان دائما إلی الحرکة ومعرفة النفس کموجة تراها فی الحرکة دائما ولاتتوقف أبدا. فلیست الطبیعة المیتة التی استخدمت فی أشعارهما طبیعة میتة بل فیها روح الحیاة ومبدأ حیاة أخری وعن طریقها یمکن الوصول إلی الحب الإلهی الذی یسبب الأمل فی الحیاة.

أسباب میل الشابی واللاهوری إلی الطبیعة المیتة

کانت بلاد هند ترزح تحت سیطرة إنجترا زهاء مائتین عام کما أن البلاد العربیة کانت تحت سیطرة الاستعمار من أجل ظروفها الاستراتیجیة ومنها تونس التی کانت ترزح تحت سیطرة فرنسا. لقد أدرک الشابی وإقبال هذه الظروف وأحسّا الظلم، والنهب، والخدعة علی مواطنیهم من جانب الاستعمار. لکنّ العامل الرئیس فی سیطرة الاستعمار علی هذه الشعوب هی مداهنة الاستعمار وتحذلقه وابتعاد الناس من الجوهر

الوجودی "خود" أو "النفس".

فالاستعمار أوحی إلی الشرقيين بأن سيطرتهم هی من جانب الله و أنهم لايستطيعون أن يغيروا مصيرهم. فاستهدفت سياسة الاستعمار إبقاء الشعب على حالة من التخلف الفكری والحيلولة دون قيام أی حركة تنويرية أو محاولة إصلاح مستنيرة. وهكذا أبعدوهم عن الاهتمام بالإرادة والنفس، والوجدان وكانت النتيجة بأن الناس نسوا أنفسهم فنری بأنهما ناديا بما ينبغی أن يكون عليه المواطن الغيور من الصفات مثل الاهتمام بجوهرهم النفسی مطالبين من الناس أن يستيقظوا أمام الاستعمار واتخذا الشعر أداة لدعوة الناس إلی الحياة وما كان ذلک إلا عن طريق الاهتمام بالطبيعة والتغنی بها ونغمات فيها عنف ورقة واضطرام وإثاره لأن الناس بإمكانهم أن يدركوا الطبيعة والكائنات الموجودة بها بسهولة. (صافی، ۱۳۶۶ش، ۲؛ ديوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۵؛ كليات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۲)

ولاننسی بأن إقبال كان مهتما بالفلسفة إلی جانب الشعر فجعل الفلسفة والشعر فی خدمة السياسة وإيقاظ الناس واطلاعهم على الاضطهاد الذی تعرّض له ويصوّر فی شعره واقع شعبه المرير.

يقول إقبال:

حق اگر سوزی ندارد حكمت است شعر می گردد چو سوز از دل گرفت

(كليات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۴۴۶)

فيعتقد إقبال بأن الحكمة الواقعية فی المجتمع هی نفس الأوامر الإلهية.

يقصد إقبال من فنه وشعره أن يظهر حزن قلبه وليس هذا الحزن إلا فقدان الوجدان والاهتمام بالنفس بين مواطنيه:

به خاک ما دلی در دل غمی هست هنوز اين كهنه شاخی را نمی هست

به افسون هنر آن چشمه بگشای درون هر مسلمان زمزمی هست

(كليات، ۱۳۸۶ش: ۴۸۷)

ولايری الشابی الشعر إلا فضاء يرفّ فيه مقال يقوله الشاعر فی خدمة بلاده

والمعالی، إنه آلة تنهد ینفث به ما یجیش فی صدره من مشاعر ویتغنی به بما یسرّه:

ما الشعر إلّا فضاءٌ یـرفّ فیـه مقـالی

فی ما یسرُّ بلادی وما یسـرّ المعـالی

(دیوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۲۰۰)

ویقول فی مکان آخر:

یـــا شـــعرُ یـــا وحـــی الوجود الحّی یا لغة الملائِک

غـــرِّد، فأیـــآمی أنـــا تبکـی علـی إیقـاع نایـک

(دیوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۱۸۰)

فعلی ذلک یخاطب الشاعر معتبرا إیاه فما للشعور وصرخة للروح الکئیبة وصدی النحیب فی قلب العاشق ودما یتفجر من جراح الکائنات. فالشعر عند الشابی وإقبـال وسیلة لإظهار شعورهما والشعر من وجهة نظرهما نوع من الإلهام والوحی ویجب علی الشاعر أن یفعم شعره من أسرار قلبه والجمال الظاهری والمعنوی أی علیـه أن ینتقـل شعوره أمام حوادث الدهر وشدائده، إلی القارئ وأن یسایره الناس وقد فعل هذا الأمر بالرمز، والتشبیه، والکنایة، والاستعارة و... . وأمـا الآن علینـا أن نبحـث عـن دوافـع "الشابی وإقبال" من الاهتمام بالحیاة فی الطبیعة المیتة.

دوافع "الشابی وإقبال" من الاهتمام بالحیاه فی الطبیعة المیتة

إیقاظ شعور الناس أمام الاستعمار والاهتمام بالنفس

أحیی "الشابی وإقبال" صوت الحیاة فی أنفاس مواطنیهم وجعلوهم یطّلعـوا بـأنَّ الجبر والاستسلام أمام مقاصد الاستعمار هو نوع من الموت؛ وأعربا عـن الحیـاة فـی الطبیعة المیتة، وکیف تجری الحیاة فیها مع أنهما متضادان. وأن یجعل النـاس الطبیعـة أسوة لأنفسهم. (ضیف، لاتا: ۱۴۵ ـ ۱۴۷؛ علی حسنی، ۱۳۷۷ش: ۱۱۴)

یصور "الشابی" الحیاة فی الطبیعة بشعور بسیط ونشوة الجمال ویسأل فی قصیدة "یا ابن أمّی" أهل بلاده کیف یرضون بذل القیود وحنی الرقاب والحیـاة تضـجّ فـیهم

فكيف يسكتون صوتهم فی نفوسهم. ويؤكد الشاعر على حرية الإنسان التی منحها الله. (شرح ديوان الشابی، ۱۹۹۹م: ۱۳۶)

ويؤكد "الشابی" على أنّ روح الإنسان لطيفة كالنسيم وكنور الضحی الذی يكون حرّاً. ويقصد الشاعر أن يقول: أيها الإنسان أو المواطن انظر إلى النور الذی نفخ فی نفسک وإلى ربيع الوجود، الربيع الذی تحيی النباتات الميتة فيه، جِد جوهر النفس ولاتستسلم أمام قيود الاستعمار مهما كانت؛ قد شبه الشاعر الوجود بالربيع لأن الربيع رمز للحياة، والطلاوة. ويحيی كل الكائنات فی فصل الربيع فلهذا يذهب سواد الاستعمار الذی ساد على الناس ليأتی مكانه ربيع الحياة:

خُلِقتَ طليقاً كَطَيفِ النّسيمِ وَ حُرّاً كَنورِ الضُّحی فی سَمَاه...

ألا انهَض وَ سِر فی سَبيلِ الحَياة فَمَن نامَ لم تَنتَظِرهُ الحَياة

ولاتَخشَ مِمَّا وراءَ التَّلاعِ فما ثَمّ إلّا الضُّحی فی صِباه

و الّا ربيعُ الوجودِ العَزيزُ، يطَرِّزُ بالوردِ ضافی رِداه

(ديوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۱۶۵)

ويريد الشاعر من خلال هذه الأبيات أن يهتم الناس بنور ذاتهم وهذا النور كالحب الذی يستطيع أن يحرّر مواطنيه من قيود الذّل والهوان ولكن "إقبال" يهتم بالحياة فی الطبيعة ويصور مناظر الربيع الخلابة ويقول: الربيع والأنهار تصاوير من الحياة وعلى الإنسان أن يجعل البحر الزخار أسوة لنفسه وينظر إلى الأنهار كيف يكون الأنهار فی حالة من التغيير والتحول دائما ولكن النهر والربيع فی كلتا الحالتين: سيره السريع والبطئ لايتوقف أبدا عن الحركة. أی أيها المواطن اعتبر من ريح الربيع، والورد، وشقائق النُعمان. (على حسنی، ۱۳۷۷ش: ۱۱۴)

خيز كه در كوه ودشت خيمه زد ابر بهار مست ترنم هزار، طوطی ودُرّاج وسار

بر طرفِ جويبار، كِشتِ گل ولاله زار، چشم تماشا بيار خيز كه در كوه ودشت خيمه زد ابر بهار

خیز که در بـاغ وراغ، قافلـه گـل رسـید　　باد بهاران وزید، مرغ نوا آفرید، لاله گریبان دریـد
حُسن گلِ تازه چید، عشق غـم نـو خریـد　　خیز که در بـاغ وراغ، قافلـه گـل رسـید

(کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۲۳۹)

فشقائق النعمان والورد رمز البهجة والحياة والهياج من أجل لونها الأحمر، والجبل رمزٌ للصلابة والشموخ أی ظلم الاستعمار کسحاب الربیع الـذی یمطـر بسـرعة علـی الأرض والجبل، ولکن الجبل لاینهدم إثر هذا المطر بل من أجل هطول الأمطار تفـتح الورود والحشیش علی الأرض. فینبغی أن یأخذ الإنسان بعض التجـارب عـن الظلـم الواقع ولایخضع أمام الاحتلال وأن یهتم بنفسه ویجد جوهر نفسه.

فالشابی وإقبال باستخدامها الطبیعة المیتة رمـزا للحیـاة اسـتطاعا أن ینفخـا روح الحیاة فی أنفس مواطنیهم.

الإهتمام بالإرادة

الخیال عنصر أساس فی الشعر ومصدر إلهام خیال الشابی وإقبال هی الطبیعة لکن الاهتمام بالطبیعـة لایسـبب أن ینسـی هـذان الشـاعران الواقـع المـر فـی مجتمعهـا ولایتسلیان مواطنیهما بالخیال والرؤیا فقط.

ومعیار الشابی هذا أمر معلوم بما أن الشعر انفعال بجمال الحیاة ومنه جمال الطبیعة. یقول "الشابی": «علی حسب ما فی الإقلیم من جمال وروعة تکنّ شاعریة الأمة وإن کان کالحا مقشعرا کانت کرة مجدبة.» (الشابی، ۱۹۶۱م: ۳۳)

یهتم "الشابی" بتنویر الشعب وتثقیفه، والخلاص من الاستعمار الهادم ویریـد مـن الآخرین أن یهتموا بإرادتهم لأن الإنسان دون أی إراده یرکن إلی حیاة الذل والهـوان ویفنی عمره وهو فی عیشته الکزّة التافهة. من القصائد الهامة التی یـرفض "الشـابی" فیها القدر هی "إرادة الحیاة". (فرهود، لاتا: ۱۰ـ۱۱)

إذَا الشَّعبُ یوماً أرادَ الحیاة　　فلا بُدَّ أن یسـتجیبَ القَـدَر
ولابُـدَّ لِلَّیـلِ أن ینجَلـی　　ولابُـدَّ لِلقَیـدِ أن ینکَسِـر

وَمَن لَم يعانِقهُ شَوقُ الحياة تَبَخِّرَ فـی جَوِّهـا وانـدَثَر

(ديوان الشابی، ١٩٩٧م: ٧٦)

فهذه القصيدة صيحة مدوية تعلن أن الشعوب لاتقهر وأن الصبح آتٍ مهما طال ليل الظلام والليل عند الشابی رمز البؤس، والهول، وعذاب الجحيم، علماً بما كان من الخفقان فی المجتمع فلايريد الشاعر أن يصرّح لمواطنيه إلى كلمة الظلم أو الاستعمار بل يستخدم مكانه الليل وتستطيع "إرادة الشعب" أن تزيل ظلام الليل وظلم الرق والعبودية فتتكسّر كل القيود. والشابی يستخدم الليل لأن الصبح المنّور يأتی بعد الليل كما أن أمل الحياة فی الطبيعة الميتة يستطيع أن يكون فی الإنسان لأن الضوء بعد السواد والحياة بعد الموت والربيع بعد الشتاء. حتى أن "الشابی" يعتبر شوق الحياة رمزا للحياة وصعود الجبال رمزا للجهد وتذليل الصعاب ونبذ السلبية. (طنوس، ٢٠٠١م: ١٥٢؛ حمود، ١٩٩٦م: ٢٩٣)

ودمدمتِ الريحُ بينَ الفِجاج وفوق الجبل وتحت الشجر

فالشاعر يمثل الأرض فی صورة الأم لأننا كلنا خلقنا منها فيسألها: لماذا تكرهين البشر! فتجاب بأنها تحب الذين يتجشمون الأخطار لبلوغ الحرية؛ أی الذين يهتمون بإرادتهم ولايخافون من شدائد الدهر:

وقالت لی الأرض لمّا تسألتُ يـا أمّ هـل تكـرهين البشـر!

أيارک فی الناس أهل الطموح ومـن يستلذّ ركـوبَ الخطـر

(ديوان الشابی، ١٩٩٩م: ٧٧)

وانظر إلى الأبيات التالية كيف يستخدم الشاعر الرمز لتيقظ الإحساس فی روح الشعب وتحرک الأشواق والرغبات الكامنة فی صدره:

يجیء الشتاء شـتاء الضـياب شـتاء الثلـوج شـتاء المطـر

فينطفئ السحر، سحر الغصون وسحر الزهور وسـحر المطـر

وتهـوی الغصـون وأوراقهـا وأزهـارُ عهـدٍ حبيـبٍ نضـر

(ديوان الشابی، ١٩٩٧م: ٧٧)

غیر خفی أن ما یرمز إلیه الشاعر فی هذه الأبیات لایقتصر علی مظاهر الطبیعة وإنها یتطبق علی کل الکائنات الحیة وعلی االبشر بصورة أخصّ أفرادا أو جماعات وهو یبتغی من وراء ذلک أن یذکی الشوق فی قلوب الناس وفی قلوب التونسیین بخاصّة وإلی الحیاة وما ینطوی علیه من سحر الوجود وجماله والحیاة التی ینادی بها حیاة المعرفة والحضارة حتی تخرج الأمّة من ظلامها االدامس إلی إشراقه النور البهیجة فتحقق لنفسها حیاة حرّة کریمة وتغدو جدیرة بالاحترام والتقدیر.

فإقبال أیضا یطلب کالشابی من شعبه أن یهتموا بارادتهم ویرفض "القدر المحتوم" لأن المفهوم الساری للقدر عند مواطنیه هو أنّ الإنسان لیس له أن یدخل فی ساحة العمل فی هذا العالم و لاحَقَّ له فی حریة العمل ولافائدة لجهده وسعیه؛ ولکن "إقبال" یؤکد فی أشعاره خاصة أشعاره حول الطبیعة علی أنّ الإنسان یستطیع أن یجعل الطبیعة أسوة له ویبنی المستقبل المُضیءَ لذا یرفض "إقبال" الغربیین الذین یعبدون المادة ویرید من مواطنیه أن یقوموا من مکانهم ویدفعوا هؤلاء الغربیین الذین یعبدون المادة ومن قصائده هذه "از خواب گران خیز": (منور، ۱۹۸۹م: ۶۳)

ای غنچه خوابیده چو نرگس نگران خیز کاشانه ما رفت به تاراج غمان خیز

خورشید که پیرایه به سیمابِ سحر بست آویزه به گوشِ سحر از خون جگر بست

از دشت وجبل قافله ها رختِ سفر بست ای چشم جهان بین به تماشای جهان خیز

از خواب گران خواب گران خواب گران خیز

از خواب گران خیز

(کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۱۵۲)

قد شبّه اللاهوری شعبه بالبرعم الذی قد نام أی یعتبر شعبه فی رقة الإحساس کهذا البرعم النائم الذی لایهتم بإرادته من أجل لطافته ورقته ویطیع أوامر الاستعمار مهما کانت. یرید الشاعر من شعبه أن یقوموا من مکانهم قلقین کالنرجس لأن النرجس یفتتح وآیة من القلق فیه، بیاضة الورد فی دائرة وصفرة فی مرکزه فیبدو مقلقاً والأبیض

والأصفر هما من الألوان التى تتداعى الحياة لأن فيها نشاط ورونق وطلاوة وأمل وجهد وحياة.

يدعو الشاعر مواطنيه أن يكونوا كالنرجس لا كالبرعم النائم وكالشمس لأن الشمس تأتى بعد الليل الذى هو رمز البؤس والهول والحيرة والقلق وهذه الشمس قد أتت بعد الليل واجتازت السهول والجبال، الجبال التى الاجتياز منها رمز لتذليل الصعاب. فعلى الناس أن يتخذوا الشمس أسوة لحياتهم ويجتازوا كل هذه المصاعب.ويجعلوا المستقبل المضئ أمامهم ولايكونوا عديم الشعور أمام المجتمع.

فلنسمع معا قول اللاهورى حيث يقول: «ينتخب كل امرئ عصيره وكل امرئ كوكب إقبال الشعب.» (منور، ١٩٨٩م: ٦٣)

الثورة على الظلم والدعوة إلى الحرّية

يعتقد الشابى أن الشعب سينتصر يوما على الظالم المستبد مهما بذر الظالم أشواك الأسى وقد شبه الشابى فى قصيدته "الزنبقة الذاوية" شعبه بالزنبقة وهى رمز النفس البريئة فى حالة تعانق لوعة الدهر والغرض هنا ظلم الاستعمار ولكن الغروب قد أصب على هذه الزنبقة الدم المائل إلى السواد والغروب هو رمز الحزن والنجيع رمز الظلم ومصاعب الدهر.

حرّض الشاعر شعور مواطنيه بلفظ الغروب، ونجيع الحياة، ودمع المساءِ لان كلها يعدّ رمز الحزن وهذا الحزن من عمل الاستعمار: (حمدوالدقس، لاتا: ١١؛ ديوان الشابى، ١٩٩٩م: ٢٥٧)

أَزَنبَقَةَ السَّفحِ، مالى أَراكِ تُعَانِقُكَ اللَّوعَةُ القَاسية؟

أَصَبَّ عليكِ شُعاعُ الغُروبِ نَجِيعَ الحياةِ، ودَمعَ المَسَا

(ديوان الشابى، ١٩٩٧م: ٢٥٧)

وفى النهاية يرى الشابى القيام على الاستعمار والوصول إلى الحرية فى الموت لأنَّ الموت عنده انتقال الإنسان إلى حياة روحية خالصة أغزر معرفة من الحياة التى كان يحياها الإنسان بجسده وقد تعرج الروح وتخلد إلى الذات الإلهى فتغبط بمشاهدة الله

ومعرفته تاركة وراءها الجسد حليف التراب. (حمود، ۱۹۹۶م: ۲۹۳)

فَحُزنی وحُزنُـکِ لایبرحـانِ ألیفَینِ، رُغمَ الزَّمانِ العَصِیب

فَنَرقُدُ تَحتَ التُّرابِ الأصـمِّ جمیعاً علی نَغَمـاتِ الحَـزَن

(دیوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۲۵۹)

کما أن "اللاهوری" أنشد فی القیام ضد الاستعمار والحث علی الحریة قطعه باسم "کبر وناز" ونهر الجبل رمز للنفس البریئـة والـثلج رمـز الاسـتعمار، جـرت بینهمـا محادثات. یسأل "الثلج" الکبر والغنج عن نهر الجبل لماذا تجری فی التراب وتجعـل سحاب السهول والودیان یذهب إلی المروج والنهر یجیب: لاتغنج علیک، أنـا أذهـب لأننی لاألیق بهذا العالم و احفظ نفسک من الغرور. قد یعدّ "الشاعر"، الإنسان البـرئ کالنهر الذی لایتعلق قلبه بالدنیا ولایخاف من شئ ویجری کالنهر بالحمـاس والهیـاج فی التراب ثم یذوب ویذهب إلی السماء وعلی السهول والإنسـان بموتـه یصـل إلـی الذات الالهی وتفتح له أبواب مغلقة وتکشف له أسرار الحب الصحیح الذی یفتقده فی هذا العـالم. (کلیـات إقبـال، ۱۳۸۶ش: ۲۴۵؛ أفکـار إقبـال، ۲۰۰۱م: ۱۷۰؛ بقـائی، ۱۳۸۵ش: ۵۵)

یخ، جوی کوه را ز ره کبر وناز گفت: ما را از مویه تو شود تلخ روزگـار

گفت آب جو چنین سخن دل شکن مگوی بر خویشتن مناز ونهال منـی مکـار

من می روم که در خور این دودمان نیم تو خوی را ز مهر درخشان نگه دار

(کلیات إقبال لاهوری، ۱۳۸۶ش: ۲۴۵)

یری "الشابی وإقبال"، الحیـاة دون أی جهـد وسـعی کـالموت یقـول "إقبـال": «الموت بالشرف هو الحب والحیاة دون الشرف هو الموت.» (منور، ۱۹۸۹م: ۲۰۰)

غرض الشابی وإقبال من ذکر الحیاة فی الطبیعة المیتة

الحب

الحب محور أساسی فی الشعر وهو مصدر الوحی للشاعر والحب هو آیـة للحیـاة

فی أشعار الشابی ولكن هناک سؤال وهو من أين أخذ "الشابی" هذا الحب؟ ومن أين أتی هذا الحب الذی يتربّی عنصر الخيال فی شعر الشابی؟ قد اهتم "الشابی" فی حبّه بعالم المثال والوصول إلی الله عز وجل، وعالم المثال هو العالم الذی يأتی الإنسان من هناک إلی عالم المادة وتدنس نفسه بسبب الابتعاد من ذات الله؛ يقول "الشابی": «فإن وظيفة الشعر وظيفة روحية إلهيه تنشلنا من عالم الدنس فتصلنا بالله الذی يمثل الجمال والحق و المحبة.» (طنوس، ۲۰۰۱م: ۱۸۹)

كما أنه يقول نعيش مع الحبّ ومن أجل الحب وللحب. هو يبحث عن هذا الحب فی الطبيعة الميتة هكذا؛ الصبح ملیء من النور والبراءة وهو رمز الله ويملأ هذا الصبح الأفق ويوقظ بغناه الذی يكون هو رمز النور فی الحياة الناعسة وهو رمز شعبه. (ديوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۲۰۳)

أقبل الصبح يغنّی للحياةِ الناعسة

أقبل الصبحُ جميلاً يملأ الأفقَ بهاه

(المصدر السابق: ۲۰۳)

والغابة مكان أمن بعيدة عن الحياة الصاخبة ومكان لسعی الراعی الجميل ومنبع لوحی الشاعر وهی رمز لعالم المثال لأنها بريئة وبعيدة من الدنس وهنالک ارتياح البال وسكينة الحياة. هو يلجأ إلی الغابة ليلتمس لروحه الثائرة الطمأنينة والسكينة ويقول:

إننی ذاهب إلی الغاب يا شعبی لأقضی الحياةَ وحدی بيأس

أننی ذاهبٌ إلی الغاب لعلّی فی صميم الغابات أدفنُ نفسی

سوف أتلو علی الطيور أناشيدی وأفضی لها بأشواقِ نفسی

فهی تدری معنی الحياةِ و تدری أن مجدَ النفوسِ يقظةُ حسّی

وكما هو الواضح إن هذا فرار إلی داخل النفس وإن اتخذ من الغابة ملاذا.

يعتبر الشابی السعی الجميل فی الحی النبيل أی الحی الذی يبعد نفسه من الدنس

ویحرک إلی النور والصبح وکما أن الصبح یجری علی الزهور الیابسة ویفعم العالم یجب علی الإنسان أن یجری إلی النور لأن الزهور الیابسة تنتعش من النور ویستطیع الإنسان أن ینتعش من النور والصبح مهما تطغی مصائب الاستعمار والدهر علیه ویکون قلبه میتاً: (دیوان الشابی، ۲۰۰۳م: ۱۰۵)

لکِ فی الغاباتِ مَرعاکِ، وَ مسعاکِ الجمیل

فَهَلُمِّی نُرجِعِ المَسعی إِلی الحَی النَّبیل

(دیوان الشابی، ۱۹۹۹م: ۲۰۵)

ولکن "إقبال"، یری الحب أمراً ضروریاً لاستحکام النفس ومادام الحب لیس فی نفسنا فلا حیاة للإنسان وأما إقبال فیم یعلم الحب؟ یعتقد هذا الشاعر یجب أن تجری محبة فی فؤاد الإنسان لیحرق قلبه منها. والحب عند إقبال رمز لله ویراه أحلی من الروح، والهدف، والمحبوب، والمقصود: (ساکت، ۱۳۸۵ش: ۵۸ـ۱۵۹)

عشق اگر فرمان دهد از جان شیرین هم گذر عشق محبوب است ومقصود است وجان مقصود نی

(کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۱۶۰)

التغرید هو رمز للسعی والجهد، والنهر هو رمز للنفس البریئة ویتعلّم هذا السعی من النهر أنّ هذا النهر یجتاز الهوّة ولایتوقف أبداً عن الحرکة بین الضحور. وهذه الحرکة، والنبضات، والجهد کلّها یتجّه فی الحب إلی الله ویری "إقبال" أنه علی الإنسان أن یسمو من روضة الورد ویعتبر نفسه فی هذه الروضة غریبا وحدیقة الورد هی رمز العالم کما أنه یری بأن القلب دون أی عشق وحبّ بارد وکئیب ویحتاج إلی الحرکة وهذه الحرکة فی نفس الإنسان تسیر إلی الله الذی یعطی الحرارة والحیاظ بروحه وقلبه. (کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۱۶۰)

نغمه‌پردازی ز جوی کوهسار آموختم در گلستان بوده ام یک ناله دردآلود نی

پیش من آیی دم سردی دل گرمی بیار جنبش اندر توست اندر نغمه داود نی

(کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۱۶۰)

وبناء علی هذا یبحث هذان الشاعران المصلحان عن الحب فی الحیاة فی الطبیعة المیتة

والحب حتی فی الطبيعة الميتة والطبيعة مع الحب ليست ميتة بل حية وفيها حياة ويقول الله عزوجل: «منها خلقناكم، وفيها نعيدُكم، ومنها نخرجُكم تارة أُخرى» (طه: ٥٥)

والحب إلى الله هو نور أو نار يجـری فـی الطبيعـة ويعطـی عليهـا الحيـاة يقـول "الشابی":

أيها الحبُّ! أنت سرّ وجـودی وحيـاتی، وعزّتـی، وإبـائی

(ديوان الشابی، ١٩٩٩م: ١٢)

ويقول "إقبال":

من ندانم نور يا نار است اندر سينه‌ام اين قدر دانم بيا من او به مهتابی زند

(كليات إقبال، ١٣٨٦ش: ١٦١)

الإيمان بالله والأمل إلى الحياة

يری "الشابی وإقبال" الإيمان بالله والأمل إلى الحياة عن مجری الحياة فی الطبيعة الميتة؛ والإيمان بالله هو شرط للأمل إلى الحياة.

لكن كيف يعتبر الإيمان بالله شرطا للأمل إلى الحياة فی الطبيعة الميتة؟

فی المر حلة الأولی: يجب على الإنسان أن يعرف "النفس" وحينما عـرف نفسـه يستطيع أن يعرف الله عز وجل ويقال: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» لكـنَّ الإيمـان بالله كيف يحصل؟ حينما ننظر إلى الطبيعة قد نری تحولا فی الطبيعة أی يـأتی الربيـع الجميل بعد الشتاءِ، والصبح الباسم بعد الليل وكل هذه الأمور تدل على قدرة الله تعالى وعلى هذا نؤمن بالله الذی يجری روح الحياة فی الطبيعة الميتة ويحيـی الميـت يـوم القيامة كما أنه يجری روح الحياة بين الناس. كما أنه تعالى قال: «أ إذا متنا وكنا تُرابـا وعظاماً أ إنا لمبعوثون» (المؤمنون: ٨٢؛ الواقعه: ٤٧؛ صافات: ٦ و١٦)

أو «أيحسب الإنسانُ أَلَّن نَجمَعَ عِظامَه؟! بلى قادرين على أن نُسوِّی بَنانَه»

ويقول "الشابی":

أيها الحـب، أنـتَ سـر وجـودی وحَيـاتی، وعزَّتـی، وإِبـائِی...

فَبِحَـقِّ الجَمـالِ، يـا أَيهـا ـ الحُبُّ، حَنَانَيکَ بی! وَهَوِّن بَلائِی

(ديوان الشابی، ۱۹۹۹م: ۱۲و۱۳)

والحُب فی هذه القصيدة هو الله تعالی، الله الذی يعشقه الشابی ويطلبه أن يساعده فی شدائد الدهر وهكذا يجری "الشابی" الحب لله بين مواطنيه. ويعلـم أن الله تعـالی قـادر علی كل شئ ويريد منهم أن يؤمنوا بقدرة الله تعالی. (ديوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۱۲)

ويقول "الشابی":

أَلهيبٌ يثُورُ فی رَوضَهِ النَفسِ فَيطغی، أَم أَنتَ نُورُ السَّماءِ؟

(ديوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۱۲)

وكما أن "اللاهوری" يعتبر معرفة النفس رمزا للحياة والإيمان بالله ويقول هكذا فی واحد من أغانيه الأردية: «حينما لم تعرف رازقک تحتاج إلـی ملوكـک وإن عرفتـه يحتاج ملوكک إليک، لأن الاستغناء وكرامة النفس من صفات الملوک وعبادة الـبطن هو موت الروح.» (حسنی ندوی، ۱۳۷۷ش: ۳۷)

ويقول "إقبال":

زنـدگانی نيسـت تكـرار نفـس اصل او از حی و قيوم است و بس

قرب جان با آنكه گفت إنی قريب از حيـات جـاودان بـردن نصـيب

(كليات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۴۰۷)

يری "إقبال" أنه يجب علی الإنسان أن يجاهد حب الذات، والذاتية حتـی يـؤمن ويصل إلی الله تعالی ويأخذ زمام النفس بيدها. (كليات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۲۵۵)

ساحل افتاده گفت گرچه بسـی زيسـتم هيچ نه معلوم شـد آه كـه مـن چيسـتم

موج ز خود رفتهای تيز خراميد و گفت هستم اگر مـی روم گـر نـروم نيسـتم

(كليات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۲۵۵)

يبين "اللاهوری" بأنَّ الإيمان بالله هو فی الطبيعة الميتة، الشاطئ هو رمز الإنسـان دون العمل، والجهد، والسعی؛ والموجة رمز للإنسان الساعی. تؤمن الطبيعة الميتة بالله، والشاطئ من أجل سكونه لايعلم من نفسه شيئا ولكن الموجة من أجل صُـراخته يـری

نفسها متحدا بالله وأحبت الموجة هذا الاتحاد. وعلى هذا يحرّک "اللاهوری" شعور الناس بأنَّ الشاطئَ لم يعرف نفسه من أجل سكونه ولكن الموجة عرفت نفسه من أجل حركته، ويجب على الإنسان أن يعرف نفسه حتى يعرف الله ويؤمن به. (كليات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۲۵۵)

المرحلة الثانية: الأمل إلى الحياة؛ بعد أن الإنسان عرف نفسه وربَّه يصبح راجياً إلى الحياة. ويبحث "الشابی" عن هذا الرجاء فی الطبيعة الميتة ويسأل "الشابی"، ماذا يكون بعد الليل؟ فی حالة الليل رمز للخوف، والشقاء. هل خلفک نور أم ظلام؟ فی حالة النور فهو يرمز إلى الأمان والمثال الروحی الجميل. يوجّه "الشابی" قارئيه بنوع من الشک ويستعمل الرمز أو يريد أن يجبر قارئيه على البحث والتفكر حتى يصلوا إلى هذه النتيجة؛ يأتی الصبح اللامع بعد خوف الليل ويجب على الإنسان أن يرجو إلى الحياة فهو قد أفنى روحه للتغنّی بالحياة وإيقاظ الأرواح الخامدة. (ديوان الشابی، ۱۹۹۹م: ۱۷۵ـ۱۷۷)

ما الذی خلفک یا ـ لیلُ... أنورٌ أم ظَلام؟

هَل سیبدو الفَجرُ ـ بسّاما کعذراءِ الخلود؟

(ديوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۱۷۶)

يخاطب "الشابی" الطبيعة الميتة ويعلم بأنَّ الصبح الضاحک البرئ يكون رمزاً للبراء ة وخالداً مثل العذراء التی تكون بريئة. غرض الشاعر فی النهاية؛ هو إتيان الفجر بعد الليل والرجاء إلى الحياة، والوصول إلى البراءة، وعالم المثال. وليس الشتاء والليل نهاية الحياة: (ديوان الشابی، ۱۹۹۹م: ۱۹۲) فهو يرى فی الموت أيضاً روحاً وحياةً.

إلى الموت، فالمَوتُ رُوحٌ جمیلٌ، یرَفرِفُ مِن فَوقِ تِلکَ الغُیوم...

ویبعث فیها ربیعَ الحیاةِ ویبهجهَا بِالصَّباحِ الفَروح

(ديوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۱۹۳)

ولكنّ "اللاهوری" مثل الشابی راجٍ بأن يأتی الفجر بعد الليل. ويريد أن يهتم مواطنيه لفجر يوجد فيه تجلی أنوار الحق. (كليات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۴۸۹)

در آن شب ها خروش صبح فرداست که روشن از تجلی های سیناست

تن وجان محکم از باد در و دشت طلوع امتان از کوه و صحراست

(کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۴۸۹)

یرید الشاعر أن یهتم قارؤه بالاتحاد مع الله ویشیر إلی الصبح الذی یکون کل هذه الأمور آیة من الله تعالی. والریح رمز للقوة والقدرة، ویستحکم الجسم بهذه الریح أی لاینحنی الإنسان أمام شدائد الدهر وحینما لاینثنی الإنسان أمام هذه المصاعب فتطلع الأمم من جبل؛ والصحراء یکون رمزاً للاستقامة، والصبر. وعلی هذا یتابع الشاعر الرجاء للحیاة فی الطبیعة المیتة ویبین لنا بعض آیات من الحیاة فیها.

ومن حرکة الطبیعة یصل إلی الله. (کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۴۸۹و۱۶۷)

صورتگری که پیکر روز و شب آفرید از نقش این و آن به تماشای خود رسید

صبح و ستاره و شفق و ماه و آفتاب بی پرده جلوه ها به نگاهی توان خرید

(کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۱۶۷)

وقد جعل الشابی واللاهوری الله تبارک وتعالی محورا وأساسا لکل الأمور وهدفهما من الدعوة إلی الاتحاد بالله والأمل إلی الحیاة هو أن یصمد شعبه أمام کل هذه المشاکل.

یقول "الشابی":

الحُبُّ رُوحٌ إلهی، مُجَنَّحَهٌ أیامُهُ، بیضاءُ الفَجرِ والشَّفقِ

یطوفُ فی هذه الدنیا، فیجعَلُها، نجماً، جمیلاً، ضَحوکاً، جِدَّ مُؤتَلِقِ

(دیوان الشابی، ۱۹۹۷م: ۱۱۳)

ویقول "اللاهوری":

عشق را نازم که بودش را غم نابودنی کفر او ز تّاردار حاضر و موجود نی

عشق اگر فرمان دهد از جان شیرین هم گذر عشق محبوب است و مقصود است و جان مقصود نی

(کلیات إقبال، ۱۳۸۶ش: ۱۶۰)

النتيجة

إن الشابی واللاهوری من الشعراء البارزين فی العالم العربی الذين عبّروا عن واقع أمتهم وأمانيها التی تمثلت فی التخلص من واقع الاحتلال التی جثم علی صدور الأمة العربية وحاولا استنهاض همم الشعب عن طريق التذكير بالطبيعة لإيقاظ الأرواح الخامدة وجعلا الحب محور كل الأمور فی العالم وهذا الحب هو الحب المثالی للوصول إلی المحبوب. فمردّ كل شئ إلی الله إذا لايوجد أی موت و فناء فی الطبيعة فيجری روح الحياة فی الطبيعة. فالإنسان بهذا الفكر لاييأس من الجهاد أمام الاستعمار ويأخذ من الطبيعة درسا ألايتوقف عن الحركة أبدا.

المصادر والمراجع

۱) القرآن الكريم.
۲) بقايی، محمد. ۱۳۸۵ش. اقبال و ده چهره ديگر. تهران: انتشارات حكايتی ديگر.
۳) حمدوالدقس، فؤاد. لاتا. تاريخ أدباء العربية (ابوالقاسم الشابی). لبنان: دار القلم العربی.
۴) حمود، محمد. ۱۹۹۶م. الحداثة فی الشعر العربی المعاصر بيانها ومظاهرها. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
۵) ساكت، محمدحسين. ۱۳۸۵ش. تهران ماهتاب شام شرق. تهران: ميراث مكتوب.
۶) ستوده، غلامرضا. ۱۳۶۲ش. مجموعه مقالات كنگره جهانی بزرگداشت علامه إقبال لاهوری. تهران: انتشارات دانشگاه تهران.
۷) الشابی، ابوالقاسم. ۱۹۶۱م. الخيال الشعری عند العرب. تونس: الشركة القومية للنشر والتوزيع.
۸) ـــــــــــ ۱۹۹۷م. ديوان. شرح يحيی شامی. بيروت: دار الفكر العربی.
۹) ـــــــــــ ۱۹۹۹م. ديوان. شرح غريد الشيخ. بيروت: مؤسسه الأعلمی للمطبوعات.
۱۰) صافی، قاسم. ۱۳۶۶ش. سفرنامه پاكستان. تهران: انتشارات كلمه.
۱۱) ضيف، شوقی. لاتا. دراسات فی الشعر العربی المعاصر. مصر: دارالمعارف.
۱۲) طنوس، جان. ۲۰۰۱م. ملامح الموت والحياة فی شخصية الشابی وشعره. دمشق: دار علاءالدين.
۱۳) عمر، محمد سهيل. ۱۹۹۹م. هر چه گويد ديده گويد. ترجمه آفتاب اصفر. پاكستان: اقبال آبادی پاكستان.

۱۴) علی حسنی ندوی، ابوالحسن. ۱۳۷۷ش. افکار شگفت اقبال. ترجمه ابوشعیب عبدالقادر دهقان. لامک: انتشارات شیخ الإسلام.
۱۵) فرهود، احمد عبدالله. ۱۹۹۸م. تاریخ شعراء العربیة. حلب: دارالقلم العربی.
۱۶) لاهوری، اقبال. ۱۳۸۶ش. کلیات اقبال. تحقیق عبدالله اکبریان راد. تهران: الهام.
۱۷) ممتحن، مهدی وحسن مجیدی. ۱۳۹۱ش. «تطبیق نوستالژی در اندیشه جبران ونیما». فصلنامه مطالعات ادبیات تطبیقی. السنة السادسة. العدد ۲۱. صص ۲۱۵-۱۸۹.
۱۸) منور، محمد. ۱۹۸۹م. ایقان اقبال. ترجمه شمین مقدم صفیاری. پاکستان: اقبال آکادمی پاکستان.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی